﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [الجن: 16 - 17]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

انتقالٌ إلى نوعٍ آخر من الموحى به إلى رسوله

بعدَ أنْ ذكرَ اللّهُ تعالى في الآيات السابقة النوعَ الأولَ من الموحى به إلى رسوله، وهي أشياءُ عن الجنّ، رغّبَ من خلالها، ورهَّب على ألسنة الجنّ بما هداهم له، ونوّر قلوبهم به؛ ذكر تعالى النوعَ الثاني الموحى به إليه، فقال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[1]، ولما كانت الآية السالفة آخر ما حكى عنهم، وهي: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ جاءتْ هذه الآية، وهي: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾؛ لتُقرِّرَ أنّ القاسطين لو آمنوا؛ لفُعِل بهم من الخير ما فُعل بمؤمني الجنّ حينَ آمنوا[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ على اعتدال الشَّيء واستوائه، يُقال: قامَ الشَّيءُ، واسْتَقامَ: اعْتدَل، واسْتَوى[3]، واستقامَ العودُ: استوى، واستقامَ على الطريق: اهتدى، واستقامَ الإنسانُ: اعتدلَ في سلوكه، وكانتْ أخلاقُه فاضلة، والاستقامةُ: حقيقتها الاعتدال، وهي ضِدُّ الاعوِجاجِ، وهي مُستعملةٌ كثيرًا في معنى ملازمة الحقِّ والرُّشدِ؛ لأنَّهُ شاعَ تَشبيهُ الضَّلالِ والفَسادِ بالاعوِجاجِ والالتِواءِ[4]، ومعنى ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ أطاعوا[5]، والاستِقامَةُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 672، والزحيلي، التفسير المنير: 29/ 170.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 486.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 273.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 662.

عَلَى الطَّريقَةِ تَمثيلٌ لِهَيْئَةِ المُتَّصِفِ بِالسُّلوكِ الصّالِحِ والاعتِقادِ الحَقِّ بِهَيْئَةِ السّائِرِ سَيْرًا مُسْتَقيمًا عَلَى طَريقَةٍ[1].

2) ﴿ٱلطَّرِيقَةِ﴾: الطَّريقُ: السَّبيل الَّذي يُطْرَقُ بالأرْجُلِ، وعنه استعيرَ كلُّ مسلكٍ يسلكه الإنسان في فِعْلٍ - محمودًا كان أو مذمومًا[2] - والطَّريقةُ: السّيرةُ والنَّهْج والأسلوب والمسلك والمذهب، وطَريقَةُ الرَّجُلِ: مَذْهبه، يُقالُ: ما زالَ فُلانٌ عَلَى طَريقة واحِدَةٍ، أي: عَلَى حالَةٍ واحِدَةٍ[3]، ومعنى الطريقة: الطَّريقُ: ولَعَلَّها خاصَّةٌ بِالطَّريقِ الواسِعِ الواضِحِ[4]، وهي كنايةٌ عن طريق الحقّ والخير، وهو طريقُ الإسلام[5].

3) ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾: أصلُ (سقى): هو إشْرابُ الشَّيءِ الماءَ وما أشْبَهَهُ، تَقولُ: سَقَيْتُهُ بيَدي أسْقيهِ سَقْيًا، وأسْقَيْتُهُ؛ إذا جَعَلْتَ لَهُ سِقْيًا، والسِّقايَةُ: المَوْضِعُ الَّذي يُتَّخَذُ فيهِ الشَّرابُ في المَوْسِمِ[6]، والسِّقايَةُ أيضًا: الصّواعُ، وفي قَولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: 70]، وهو الَّذي كانَ يَشْرَبُ فيهِ المَلِكُ[7]، والسَّقيُّ على فَعيلٍ: السَّحابَةُ العَظيمَةُ القَطْرِ[8]، والمقصودُ بقولِه ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾؛ لوسّعنا عليهم في الرزق، وبسطناهم في الدنيا، وأعطيناهم مالًا كثيرًا[9].

4) ﴿غَدَقًا﴾: أصلُ (غدق) يَدُلُّ عَلَى غُزْرٍ وكَثْرَةٍ ونعْمَةٍ، مِن ذَلِكَ الغدقُ، وهوَ الغَزيرُ الكَثيرُ[10]، وغدقَتِ العَيْنُ: فاضتْ، وكَثُرَ ماؤُها، والغَدَقُ: المَطَرُ الكَثيرُ العامُّ، والغَدَقُ أيضًا: الماءُ الكَثيرُ، وإنْ لَمْ يكُ مَطَرًا، وغدَقَ العيشُ: اتَّسعَ، ورغد[11]، ومعنى ﴿غَدَقًا﴾ في الآية كثيرًا طاهرًا مستمرًّا عظيمَ النفع يكثرُ به الرزق، وتُزيَّنُ به الأرض، ويرغدُ به العيش[12].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 238.
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (طرق).
(3) ابن منظور، لسان العرب، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (طرق).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 238.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 662، ودروزة، التفسير الحديث: 3/ 16.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقى).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سقى).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقى).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 662.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غدق).
(11) ابن منظور، لسان العرب، والفيومي، المصباح المنير، وأحمد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (غدق).
(12) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 487، ودروزة، التفسير الحديث: 3/ 16.

5) ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ﴾: أصلُ (فتن) يدلُّ على ابتلاءٍ واختبار، يقال: فتنتُ الذهب بالنار؛ إذا امتحنته، أي: أذبتها بالنار للتصفية أو للصوغ، واستعمله القرآن الكريم بمعنى الإحراق أو الإذابة المادية، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذاريات: 13]، وما ليس بمعنى الإحراق أو الإذابة المادية ممّا استعمله القرآن يدور معناه بين الابتلاء إيقاعًا أو تعريضًا للبلاء المحمول عن حالٍ أو موقف، وبين التحوُّل نفسه[1]، والمراد هنا بقوله: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ﴾، أي: لنختبرهم، ونبتليهم[2].

6) ﴿يَسۡلُكۡهُ﴾: أصلُ (سلك) يَدُلُّ على نُفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ، وسَلَكْتُ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ، فانْسَلَك، أيْ: أدْخَلْتَهُ فيه، فَدَخَلَ، واللّه يُسْلِكُ الكفّارَ في جَهَنَّمَ، أيْ: يُدْخِلُهُمْ فيها، والسُّلوكُ: النَّفاذُ في الطَّريق، يُقالُ: سَلَكْتُ الطَّريقَ، وسَلَكْتُ كذا في طريقه، وقوله: ﴿يَسۡلُكۡهُ﴾ موافق للمعنى اللغوي، أي: يُدخله[3].

7) ﴿صَعَدًا﴾: أصلُ (صعد) يَدُلُّ عَلَى ارتِفاعٍ ومَشَقَّةٍ، والصَّعودُ: العَقَبَةُ الكَؤودُ، والمَشَقَّةُ مِنَ الأمْرِ[4]، والصَّعَدُ: المَشَقَّةُ، وعَذابٌ صَعَدٌ، بِالتَّحْريكِ، أي: شَديدٌ، ويُقالُ: تَصَعَّدَهُ الأمْرُ؛ إذا شَقَّ عَلَيهِ، وصَعُبَ[5]، ومعنى ﴿صَعَدًا﴾ هنا: شديدًا شاقًّا مؤلمًا موجعًا، لا راحةَ فيه، وقيل: هو جبلٌ في جهنم[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سُنَّةٌ مِن سُنَنِ اللهِ في عبادِهِ النعمةُ جزاءُ الاستقامة

بيَّنَ اللّهُ تعالى سُنَّةً مِن سُنَنِه في عبادِه، فيقولُ: وأنْ لو استقامَ هؤلاء القاسطون على طريقة الحقّ والاستقامة؛ لوسعنا عليهم في

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فتن).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 662، ودروزة، التفسير الحديث: 3/ 16.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 249.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صعد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (صعد).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 664، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 243.

الرزق، وبسطنا لهم في الدنيا؛ لنختبرهم فيه، ومن يُعرض عن ذِكر ربه الذي ذكره به، وهو هذا القرآن، أي: يعرضُ عن استماعه واستعماله، يُدخِلْه اللهُ عَذابًا شَديدًا شاقًّا لا يُطيقُه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَأَلَّوِ﴾:

في العطفِ إبرازٌ لشموليّةِ الوحي

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ عَطْفٌ على قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، وهو مِنْ جملةِ الموحَى إليه، والتقدير: (قل أوحي إلي أنّه استمع نفر، وأن لو استقاموا)، فيكون هذا هو النوع الثاني ممّا أوحي إليه[2]، وفائدةُ العطف إبرازُ شمولية الوحي، وأنّه لا يقتصرُ على خبرٍ حدثَ في الماضي مثل استماع الجنّ للنبي ﷺ، بل يتضمّن توجيهات وقواعد وسننًا ربانية.

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾:

أمرٌ عظيمٌ وشأنٌ مهمٌّ مؤكَّدٌ

لمْ يقلْ سبحانَه: (ولو أنّهم استقاموا)؛ لكون ما عبّر به القرآن بقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ أبلغَ وأعمقَ دلالةً من جهة التركيب النحوي، فلفظ: (ألَّو) مؤلَّفٌ من (أن) المخففة من الثقيلة المتّصلة بضمير الشأن أو القصّة، و(لو): حرفُ الشرط، ويدلّ ضمير الشأن على أمرٍ عظيم أو شأن مهمّ، يُلفت الانتباه إليه، ويؤكّده، ويُضخِّم معناه، والتقدير: وأوحي إليّ أنّ الشأن والحديث لو استقاموا على الطريقة؛ لأسقيناهم ماءً غدقًا[3]، وهذا بخلاف ما لو عبَّر بـ(لو أنّهم)؛ لأنّها جملةٌ شرطيّة مباشرة لا تتضمَّن ضمير الشأن، فلا تعطي القوّة التأكيدية ذاتها، ولا توحي بعظمِ الموضوع بالدرجة نفسها.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 662، 664.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 672.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 672.

بلاغةُ التَّعبير بالجملة الشرطية:

جملة: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ شرطيّةٌ تفيدُ تعليقَ حكم سعة الرزق من الله على الاستقامة على طريقة الحقّ، وفي التعبير بها إنذارٌ بأنَّهم إنِ استَمَرّوا على اعوِجاجِ الطَّريقةِ أُمسِكَ عنهم الماءُ - وذلك على قولٍ - فيَقَعوا في القحْطِ والجوعِ، وهو ما حَدَثَ عليهم بعْدَ هِجرةِ النَّبيّ ﷺ إلى المدينةِ ودُعائِه عليهم بسِنينَ كسِني يوسُفَ، فإنَّه دَعا بذلك في المدينةِ في القُنوتِ، وقدْ كانوا يومَ نُزولِ هذه الآيةِ في بُحبوحةٍ مِن العيشِ وفي نَخيلٍ وجنّاتٍ[1].

إنـــذارٌ بـأنّ الاستـمرارَ على الاعوِجاجِ سببٌ في إمساك الله النعمة

دلالة التعبير بالاستقامة مادةً وصيغةً:

لا يختارُ القرآن لفظًا إلّا لحكمةٍ مخصوصةٍ، وهنا آثرَ الفعل ﴿ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ دون (أقاموا)؛ لأنّ صيغةَ (استفعل) تُفيد الطلبَ والسَّعي الذاتي المستمرّ نحو الاستقامة والثبات، أي: يُشترَطُ في سلوك طريق الحقّ بذلُ الجهد، وتحمُّلُ المشقّة فيه، ومجيئه بصيغة الماضي - مع أنّ الحديثَ عن افتراضٍ أو شرطٍ مستقبلي - يفيدُ اشتراطَ تحقُّق وقوعِ هذا الجهد منهم لنيلِ عطاء الله الوافر.

تـحـقُّـقُ بـذلِ الـجـهـد في الاسـتـقـامـةِ والـثـبات عليها شرطٌ لنيل عطاءِ الله الوافر

وأمّا إيثارُ مادة (قَوَمَ) دون غيرها؛ فلم يقلْ: (وألّو أطاعوا، أو اهتدوا)؛ لكونها أوسعَ دلالةً، فهي تشملُ القيام والاعتدال والثبات والاستمرار والسير المستقيم، بلا انحرافٍ أو ميلٍ واعوجاج، فالإنسانُ قد يهتدي، لكنّه لا يستقيم، وقد يسلكُ الطريق، لكنّه يميلُ، أو يتعثّر.

دلالة التعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾:

يتعدّى الفعل (استقام) بعدّة حروف، وهي: (على وفي واللام)، ولكنّ البيانَ القرآنيَّ آثرَ تعدية الفعل في الآية بـ﴿عَلَى﴾ دون غيرها؛ لكونها تفيدُ الاستعلاءَ والثبات والتمكُّن، وهذا يدلُّ

إيحاءٌ بالمجاهدة والـثـبـاتِ في الاستقامة على طريقِ الحقّ

(1) صحيح البخاري: (1006)، وصحيح مسلم: (675).

على اشتراطِ الثبات والتمكُّن في الاستقامة على طريق الحقّ، أي: ثبتوا ثباتًا راسخًا، واستعلَوا على الصعوبات، وتمكّنوا من الالتزام بهداية الطريق، أي: لم يكونوا مجرَّد سالكين للطريق، بل متمكّنين منه، ثابتين عليه، لا ينحرفون، وفي لفظ ﴿عَلَى﴾ كذلك إيحاءٌ بالمجاهدة، أي: كأنّهم صعدوا على شيءٍ ثقيل أو صعب، وواجهوا مشقّته.

دلالة إسناد فعل الاستقامة إلى واو الجماعة:

الإيجازُ وإثراءُ المعنى وتوسيعٌ للدلالة

عبّر البيانُ الحكيم في قولِه: ﴿ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ بالإضمار دون الإظهار؛ لإثراء المعنى وتوسيعه؛ إذ أوحى الضمير بأنّ المراد لا يقتصرُ على الجنّ الذين استمعوا، بل يشملُ كلّ من عرف الطريق، وخوطب بالاستقامة من الإنس والجن، ولذا اختلفَ المفسرون في عود الضمير، فقيل: يعودُ على القاسِطينَ الذين تقدّم ذكرهم، ووصفهم، وقيل: يعودُ على الإنس، وهم المشركون؛ لأنَّ الترغيبَ بالانتفاع بالماء الغدق إنّما يليقُ بالإنس لا بالجن، وبخاصّة أنّ الآية نزلتْ زمنِ القحطِ بمكة والسورة مَسوقَةٌ؛ للتَّنبيهِ على عنادِ المُشْركينَ وطَعْنِهم في القرآنِ[1]، أو يعودُ على كلّ القاسطين من الإنس والجنّ[2]؛ لأنّ العلة – وهي الاستقامة – عامة، فيعمّ الحكم[3]، وفي التعبير بالضمير أيضًا إيجازٌ، فقد سبقَ ذكر الجنّ صراحة، وأُشيرَ إلى الإنس من خلال سياق السورة، التي تُعنى بالتنبيهِ على عنادِ المشركين من قريش وطعنهم في الوحي.

سر إفراد لفظ ﴿ٱلطَّرِيقَةِ﴾:

طريقةٌ صحيحةٌ وحيدةٌ لا بديلَ عنها في الوصول إلى الفلاح

عبَّر البيانُ الحكيمُ في لفظ ﴿ٱلطَّرِيقَةِ﴾ بالإفراد دون الجمع؛ للإشارة إلى أنّها الطريقة الوحيدة الصحيحة، "التي لا طريقةَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 238.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 487.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 672.

غيرها، وهي التي فهمها الجنّ من القرآن من الإسلام والإقساط المؤدّية إلى الفلاح في الدارين"[1].

بلاغةُ الاستعارة التمثيلية:

عبّر القرآنُ بلفظِ الطريقةِ في قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾، بدلًا من ذكر الإسلام أو الإيمان؛ ليحقّق بلاغة التمثيل؛ إذ الاستقامةُ على الطَّريقةِ تَمثيلٌ لهَيئةِ المُتَّصِفِ بالسُّلوكِ الصّالحِ، والاعتقادِ الحقِّ، بهَيئةِ السّائرِ سَيرًا مُستقيمًا على طَريقةٍ؛ ولذلك جاء التعريف في ﴿ٱلطَّرِيقَةِ﴾ عامًّا للجنس، لا مقيّدًا بزمنٍ أو عهدٍ معين[2]، وفائدةُ هذا التمثيل تجسيدُ الاستقامة في صورة مرئية ومحسوسة يفهمها العقل، ويشعرُ بها القلب، فالطريقُ يوحي بالسير، والاستقامةُ فيه توحي بالثباتِ والانضباط.

الاستقامةُ في صورةٍ مرئيةٍ ومحسوسةٍ يفهمها العقلُ، ويشعرُ بها القلب

دلالة اللام في قوله: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾:

اللامُ في قوله: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾ واقعة في جواب (لو)[3]، وهي تفيدُ توكيدَ أنّ الجملة التي بعدها هي الجوابُ الحقيقي للشرط، بما يدلّ على قوةِ الجواب وتحقيقه، أي: لو حصلتِ استقامتهم حقًّا؛ لكان السقيُ الغدقُ متحقّقًا لا محالة.

السقيا نعمةٌ موعودةٌ مشروطةٌ بالاستقامة

دلالة زيادة الهمزة في الفعل:

آثرَ البيانُ الحكيمُ التعبيرَ بالفعل المزيد بالهمزة ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾ دون سقيناهم؛ لكونه أبلغَ في بيانِ عظيمِ فضلِ اللّهِ عليهم، فهو لم يجعلهم يشربون، أو يتنعَّمون بحسب ما يدلّ عليه الفعل المجرّد (سقى)، وإنما هيّأ لهم أسبابَ السقيا والنّعيم، ومكّنهم منها، وجعلها أكثرَ امتدادًا، فضلًا عن أنّ التّعبيرَ بالصيغةِ - التي تفيدُ التمكينَ - أنسبُ مع قوله: ﴿غَدَقًا﴾، وهو غزارةُ الماء، ومع لفظ

المبالغةُ في بيانِ عظيمِ فضلِ اللهِ بتهيئةِ أسباب النعمة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 487.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 238.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 243.

﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾؛ إذ الاختبارُ في التمكين بالنعمة أشدّ، وأما صيغة الماضي؛ فلإفادة تحقيقِ وقوعِ جواب الشرط؛ إذا ما تحقّق فعله.

فائدة إسناد الفعل إلى ضمير التعظيم:

عظمةُ العطاء من عظمةِ المعطي ﷻ

عبّر البيانُ الإلهي بنون العظمة في قوله تعالى: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم﴾؛ تعظيمًا لشأنِ العطاء، وتفخيمًا للماء الذي هو أصلُ الحياة ومنبعُ كلّ خير؛ ليُفهم أنّ هذا السقْي ليس مجرّد ماء، بل عطاءٌ عظيم صادرٌ عن عظمة إلهية، فهو ماءٌ كثير، عظيمٌ النفع، جزيلُ البركة، كريم المصدر[1].

بلاغةُ الكناية في قوله: ﴿مَّآءً غَدَقٗا﴾:

تصويرٌ بديعٌ للعطاءِ الإلهي الوفير

أخبرَ القرآن الكريم عمّا أعدّه اللّهُ تعالى للجنّ من وفرة المنافع، ورغدِ العيش، وسعةِ الرزق؛ إنْ هم استقاموا على طريق الهداية، لكنّه كنّى عن ذلك كلّه بلفظٍ واحدٍ جامع، هو (الماء الغدق) في قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾؛ إذ عبّر بالماء - لا بلفظِ الشرب أو اللبن أو العسل - لأنّ الماءَ أصلُ المعاش، ومصدر الرزق، وأساسُ كلّ خير، كما قال تعالى في شأن قوم نوح: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١﴾ [نوح: 11]، ولأنّه قوامُ الحياة، ومنه كلّ شيء حيّ، فضلًا عن كونه عزيزًا نادرًا في بيئة العرب[2]، مما يجعلُ التعبيرَ به أبلغَ في إثارةِ الرغبة، وأقوى في الحثّ على الاستقامة، لِما فيه من تصويرٍ بديعٍ للعطاء الإلهي الوفير.

نكتة تنكير لفظ ﴿مَّآءً﴾:

تنكيرٌ يثيرُ التشويقَ ويدلُّ على التفخيم

تنكيرُ لفظِ ﴿مَّآءً﴾ للتعظيم والتفخيم، فهو ماءٌ عظيمُ الشأن، ليس كأيّ ماء، ولكونه أنسبَ مع معنى الغدق، الذي يفيدُ الكثرةَ المستمرة الواسعة، وللتشويق والإبهام المقصود، فالتنكيرُ يفتح باب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 487.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 487، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 45.

التصوُّر عند السامع، أيُّ ماءٍ هذا؟ كم هو؟ ما صفته؟ كيف هو؟ ثم يأتي الجواب مباشرة في لفظ ﴿غَدَقًا﴾، أي: كثيرٌ متدفّق، فكأنّ التنكيرَ هنا وسيلةٌ بلاغية؛ لإثارة الانتباه ثم تفصيل الصفات.

سرّ وصف الماء بلفظ ﴿غَدَقًا﴾ منكَّرًا:

مبالغةٌ في بيان سعةِ الرزق ووفرته لمن استقامَ على طريقِ الحقّ

وصَفَ البيانُ الحكيم الماء بـ﴿غَدَقًا﴾ دون (كثيرًا)؛ مبالغةً في بيانِ سعةِ الرزق ووفرته لمن استقامَ على طريقِ الحق؛ لكون الغدقِ أوسعَ دلالةً، فهو يعني الماء الوفير، الدائم، الكثير، الواسع، المتدفّق، أي: كثيرًا عظيمًا عظيمَ النفع نكثّر به الرزق، ونزيّن به الأرض، ونرغّد به العيش[1]، ولكون لفظ الغدق أنسبَ للفظ الماء، بخلاف لفظ (كثير)، فيقالُ للماء وغيره، وقد جاء منكرًا لا معرّفًا باللام، فلم يقل: (الماء الغدق)؛ مبالغةً في التعظيم والتفخيم والتكثير، فهو نوعٌ فريدٌ من الغدق والوفرة، لا كأيّ ماء.

دلالة اللام في قوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾:

تذكيرُ القلوب بأنَّ استمرارَ النِّعمةِ امتحانٌ وفِتنةٌ

اللامُ في قوله تعالى: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ للتعليل[2]، وقد تناسبَ التعليلُ بالافتتانِ مع الجُملةِ السّابقةِ، وهو قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾؛ إذ يكونُ تَعليلًا لِما تَضمَّنَه معْنى إدامةِ الإسقاءِ، فإنَّه تَعليلٌ للإسقاءِ الموجودِ حينَ نُزولِ الآيةِ، ولَيس تَعليلًا للإسقاءِ المفروضِ في جَوابِ (لَو)؛ لأنَّ جَوابَ (لَو) مُنتَفٍ، فلا يَصلُحُ لأنْ يُعلَّلَ به، وإنَّما هم مَفْتونونَ بما هم فيه مِن النِّعمةِ، فأراد اللهُ أنْ يوقِظَ قُلوبَهم بأنَّ استمرارَ النِّعمةِ عليهم فِتنةٌ لهم، فلا تَغُرَّنَّهم[3].

سر التّعبير بالفتنة دون الاختبار:

الفتنةُ أشدُّ الاختبارِ وأبلغه

التعبيرُ بالفتنة دون الاختبار في قوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾؛ للإشارةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 487.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 243.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 238 - 239.

إلى خطورة الدّنيا وسعةِ الرزق وخطورة الغفلة بسببهما وأثرهما في الافتتان، فالنعمةُ قد تكون سببَ الهلاك؛ وذلك ليكون منها على حذر؛ لأنّ الفتنةَ تشملُ الإغراء بالنعمة، لا مجرّد الامتحان، وهل سيؤدي الإغراء بها إلى الطغيان أو الشكر؟ فهي أدقُّ في هذا السياق، فضلًا عن أنّ لفظَ الفتنةِ أوسعُ دلالةٍ، فإنّها تأتي بمعانٍ متعدّدة، منها: البلاء، الابتلاء، الإغراء، الإضلال، التمحيص، فالفتنةُ أشدُّ الاختبار وأبلغه.

دلالة التعبير بالمضارع في قوله: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ﴾:

استمرارية التحذير من الافتتان بالدنيا

التعبيرُ بالمضارع في ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ﴾؛ للدلالة على استمرارِ أثرِ النعمة في الافتتان، وعلى أنّ الامتحان في هذه الدنيا مستمرٌّ لا ينقطع، وفي ذلك مزيدُ تحذيرٍ من الافتتان بالدنيا وزهرتها.

دلالة التعبير بنون العظمة في قوله: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ﴾:

تخويفٌ إلهيٌّ لتكون سعةُ رزقه سببًا للشكرِ لا للكفر

في التّعبير بنون العظمة في قوله تعالى: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ﴾، مزيدٌ من التخويف للمخاطَبين؛ ليكونوا على تنبُّهٍ وحذرٍ دائمين من أنْ تكون سعةُ الرزق سببًا للطغيان لا للشكران، كما أنّ في هذا التعبير بيانًا لقدرة الله تعالى في معاملتهم معاملةَ المختبر، فيما يُغدقه من رزقٍ؛ لينكشفَ حالُ الشاكر والكافر[1].

بلاغة الإدماج في قوله: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾:

بين الوعد والوعيد تذكيرٌ بامتحانِ النعمة

جُملةُ: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ إدماجٌ، فهي مُعترضةٌ بيْنَ جملةٍ تُعبِّر عن وعدٍ إلهيّ بوفرةِ النعم وسعةِ الرزق، لو أنّ الجنّ استقاموا على طريق الهداية، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾، وبيْنَ جُملةٍ تُعبّرُ عن وعيدٍ وتحذيرٍ صارمٍ من عاقبة الإعراض عن ذكر الله وطاعته، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 488.

ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾[1]، فجُملةُ: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ تربطُ بين الوعد والوعيد، وتُبرزُ جانبَ الامتحان في استمرار النعمة، وتُحذِّرُ من أنّ هذه النعمة قد تكون سببًا في الانحراف والطغيان.

دلالة التعبير بحرف الظرفية (في):

في كون النعمة بيئةً حاضنةً للفتنةِ تنبيهٌ من الغفلة

(في) حرفُ جرّ يفيدُ الظرفيّةَ، والمعنى: لنجعلَ الماء الغدق - أي: السعةَ في الرزق - ظرفًا يقعُ فيه الابتلاء والاختبار، فالنعمةُ نفسها (الماء الغدق) هي البيئة الحاضنة للفتنة، لا أداة خارجية عنها، وفي هذا إنذارٌ لهم، وتنبيهٌ حتى لا يقعوا في الغفلة، أو يبقوا فيها.

دلالة الإضمار في قوله: ﴿فِيهِۚ﴾ دون الإظهار:

الإضمارُ اختصارٌ بلا غموض

عبّر البيانُ الحكيم بالضمير دون الاسم الصريح، فلم يقل: (لنفتنهم في الماء الغدق)؛ لتحقيق الإيجاز مع ظهورِ المعنى، فلا حاجة لإعادة الاسم: ﴿مَّآءً غَدَقٗا﴾؛ لأنّ السامعَ قد علمه مسبقًا من الآية السابقة، والمعنى: لنفتنهم في ذلك الماء الذي تكون عنه أنواع النعم[2].

دلالة العطف بالواو في قوله: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ﴾:

تباينٌ في الجزاء بين حالتين متقابلتين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾ عطفٌ، والمعطوفُ عليه محذوف، والتقديرُ: لنفتنهم فيه، فمَن يُقبلْ على ذكرِ ربه ننعّمه في دار السلام أبدًا، ومن يُعرضْ نسلكه عذابًا[3]، وفائدةُ العطف التعبير عن التباين بين جزاءين لحالتين متقابلتين، وهما: حالة مَن يُقبلْ على ذكر الله، فيُنعَم عليه بدار السلام، وحالةُ مَن يعرضْ عن ذكر الله، فيُمسك بالعذاب.

سر التعبير بـ(مَنْ) الشّرطيّة:

العذابُ الصَّعَدُ مترتّبٌ على فعلِ كلّ من يُعرضْ عن الحقّ

عبّرَ البيانُ الحكيم لفظ (مَنْ)؛ لكونه يشملُ مع العموم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 239.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 488.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 488.

الشرطية، فهو اسمٌ يشملُ كلّ من يُعرض عن ذكر الله إنسيًّا أو جنيًّا، عربيًّا أو أعجميًّا رجلًا أو امرأة، وهو اسم شرط جازم يفيدُ أنّ العذابَ الصَّعَدَ مترتّبٌ على فعل الإعراض، وأيضًا فإنّ الأسلوبَ الشرطي يجذبُ الانتباه، ويُهيّئ النفسَ لنتيجةٍ خطيرةٍ.

سرُّ التّعبير بالإعراض مادّة وصيغة:

بيانُ سوءِ حالِ مَـنْ يستحقُّ عـذابَ اللـهِ الشديد

عبّر البيانُ الحكيم بلفظ الإعراض بدلًا من التولّي؛ ليُبيّن سوءَ حال من يستحقّ عذاب الله الشديد؛ إذ إنّ الإعراضَ يعني الانصرافَ الكامل عن الذكر، سواء بالقلب أو بالجسد، بمعنى تخطّي الموعظة والعبادة كليًّا، ومع أنّ الإعراض يشتركُ مع التولي في تركِ السلوك، إلا أنّ حال المُعْرِض أسوأ؛ لأنّه لا يعودُ بسهولة، بخلاف المتولي الذي إذا ندمَ؛ يسهل عليه الرجوع، أمّا المعرض؛ فلا يُرجى عودته إلا بطلب جديد[1]، والإعراض يجمع بين الانصراف، والصدّ، والرفض، والإهمال، والتّرك، مع التّجاهل وعدم الاكتراث، مما يبيّن قساوةَ موقفه في الآخرة، والتعبير بصيغة المضارعة؛ لإفادة الاستمرار في الإعراض والإصرار عليه حتى يستوجبَ العذابَ الشاقّ، فلو أعرضَ، ثم تاب إلى الله، فلا يستحقّ هذا العذاب، والمعنى: من يعرضْ إعراضًا مستمرًّا إلى الموت[2]، ومن هنا فما تفيده المضارعة أنسبُ مع مقام التحذير.

دلالة تعدية فعل الإعراض بـ﴿عَن﴾:

ابتعادٌ تامٌّ عن الحـقّ يكشفُ قبحه وشـدّة استـحـقـاقِ العذاب عليه

يدلُّ حرفُ الجر ﴿عَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ على المجاوزة، وهو الأصل فيها، أي: من يُعرضْ مجاوزًا عن عبادة المحسن إليه المربي له[3]، والتعدية بـ﴿عَن﴾ مع فعل (أعرض) تدلّ على الانصراف والابتعاد والانفصال التامّ

(1) تفسير الراغب: 1/ 247، والكفوي، الكليات، ص: 28.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 488.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 488.

عن الشيء بعد العلم به، وهذا يشيرُ إلى سوء حال المُعرضين واستحقاقهم العذاب الشديد.

سرُّ التَّعبير بالذكرِ في قوله: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ﴾:

الانـصـرافُ عن ذِكر الربّ إعراضٌ عـن الـدّيـن كلّه جملةً وتفصيلًا

آثرَ البيانُ الإلهيُّ اختيارَ لفظ ﴿ذِكۡرِ﴾؛ لكونه أوسعَ دلالةً؛ فهو يشملُ العبادةَ بكلّ صورها، والموعظةَ التي توقظ القلوب، والوحي المُنزَل بما فيه من أحكام وهدايات، والمعنى: ومَن يُعْرِض عَن عِبادَة ربه، أو عَن مَوعِظَتِهِ، أو وحيِهِ؛ نسلكه عذابًا صعدًا[1]، فكأنّ من يُعرض عن ذِكر ربّه قد أعرضَ عن الدين جملةً وتفصيلًا، قلبًا وقالبًا، ولذا استحقّ هذا العذاب الشّديد.

سرُّ العدول عن الإضمار إلى الإظهار:

تعظيمُ حالِ ذكر اللـه والعـنـايةِ بحقه

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ﴾ عَدَلَ البيانُ الحكيمُ إلى الإظهار، فلم يقلْ: (عن ذكرنا أو عن ذكري)؛ لزيادةِ توكيدِ إسناد الأمر لله، ولتعظيمِ حال الأمر المُظهر والعناية بحقّه، ولاقتضاء الحال، والإيماء إلى وجهِ بناء الخبر، فإنّ المعرضَ عن ربّه المنشئ له، المدبّر لأمره، المحسن إليه، المربي له، الذي لا إحسان عنده من غيره، جديرٌ بأنْ يسلكَ عذابًا صعدًا[2].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ الربوبية مضافًا إلى الضمير:

مـــن دلائـــل سـوءِ المعرضين إعـراضـهـم عن شـكـرِ المحسن إليهم المربي لهم

اختيارُ البيانِ القرآنيِّ التّعبير بلفظ الربوبيّة دون الألوهية، في قوله: ﴿ذِكۡرِ رَبِّهِۦ﴾، وأضافته إلى ضمير المعرضين عن ذكر الله، فيه لفتةٌ مهمّة؛ لأنّ الربوبيّة فيها معنى الرَّحمة والتَّربية والإشعار باللطف والإحسان والعطاء، وهذا يظهر سوءَ حال المعرضين الذين يعرضون عن عبادة الله وموعظة الوحي المنزَل من المحسن إليهم المربي لهم، الذي لا إحسان عندهم من غيره[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 45.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 488، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 240.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 488.

دلالة التَّعبيرِ بالفعل ﴿يَسْلُكْهُ﴾ مادّة وصيغة:

تصويرُ العذابِ الملاصقِ المتكرّر الذي لا انفكاكَ منه ولا مفرَّ

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ آثرَ البيانُ الحكيمُ التَّعبيرَ بالسَّلْكِ دون الإدخال؛ ليكون استعمالُ السَّلْكِ - وحقيقته الإدخال - في معنى شدّة وقوع الفعل من باب الاستعارة، والمعنى: ندخله عذابًا ملاصقًا له لا مصرف عنه[1]، بحيث يكون المُعَذَّبُ فيه مظروفًا، كالخيط في ثقبِ الجوهرة في تقوُّمه ونفوذه من غير أدنى تعريج إلى غير المراد[2]، ويؤيّد هذا المعنى وصف العذاب بالمصدر في قوله: ﴿صَعَدًا﴾، والتَّعبيرُ بصيغةِ المضارعةِ ﴿يَسْلُكْهُ﴾؛ للدلالةِ على الاستمرار والتّجددِ، أيْ: إنَّ السّلوكَ في العذاب ليس لحظةً واحدةً، بل ممتدٌّ ومتجدِّد، ومجيئها في جواب الشرط يُفيد وعيدًا دائمًا لا يُنقَض، كأنّ الله يقول: هذا ما يكون لكلِّ معْرِضٍ في كلّ زمان، ولإفادةِ التّصوير الحيّ الحاضر، كأنّك ترى العذابَ يقعُ الآن في هذه اللحظة، فيزيد الإحساس بهول المشهد.

سرُّ مجيء الفعل ﴿يَسْلُكْهُ﴾ متعدّيًا بنفسه:

تصويرٌ نفسيٌّ لشدةِ العذابِ الذي لا يُفارق

جاء فعل الإسلاك متعديًا إلى مَفعولين: إمّا بحذْفِ الجارِّ وإيصالِ الفعلِ، وإمّا بتَضمينِه معنى: (نُدخِلُه)[3]، ولم يقلْ سبحانه: (يسْلُكُه في عَذابٍ)، كقولِه: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ [المدثر: 42]؛ لأنَّ البيانَ الحكيمَ لم يذكرْ مكانَ العذاب كسقر أو النار، بل ذَكَر العذاب نفسه، كأنّه شيء يُسلَك للمُعْرِض عن ذكرِ ربّه مباشرة، فالتعديةُ المباشرة أقوى في التصوير النفسي لشدّة العذاب الذي لا يُفارق، بل يَسلكه بكلّ كيانه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 239.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 502.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 629.

توجيه القراءات في قوله: ﴿يَسْلُكْهُ﴾:

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف ﴿يَسْلُكْهُ﴾ بياء الغائب، والضميرُ المستتر يعودُ إلى ﴿رَبِّهِۦ﴾، وقرأ الجمهور ﴿نَسْلُكْهُ﴾ بنونِ العظمة على الالتفات من الغَيبة في قوله: ﴿يُعْرِضْ﴾ إلى المتكلم في قوله: ﴿نَسْلُكْهُ﴾[1]؛ إذ مقتضى الكلام أن يقول: (يسلكه)[2]، والغرضُ من ذلك أن يبيّن للسامع أنّ هذا المصير الأليم واقعٌ للسامع؛ إنْ كفر، سواء كان حاضرًا أم غائبًا، وأنّ في الغَيبةِ إعراضًا عن مخاطبته لسوءِ صنيعِه، وفي الخطابِ توبيخًا وتخويفًا شديدًا له بالمواجهة.

المصيرُ الأليم واقعٌ للسامع إنْ كفرَ سواءٌ كان حاضرًا أو غائبًا

سرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿عَذَابًا﴾ ومجيئه منكرًا:

العَذابُ هو الإيجاع الشَّديد[3]، والنَّكالُ والعُقوبَة[4]، وهذا أنسبُ لمقامِ التّهديد ووصف العذاب بـ﴿صَعَدًا﴾، الذي يدلّ على الشدّة المتزايدة، والمشقّة المستمرة، بخلاف العقاب الذي قد يُفهم منه أنّه جزاءٌ عادل على ذنبٍ محدّد، وفي هذا من التهديد والتخويف ما فيه.

تهديدٌ بإيجاعٍ شديدٍ عظيمٍ لا يُطاق

وقد جاء نكرةً؛ لإفادة التعظيم والتفخيم والعموم لا التخصيص، فهو عذابٌ عظيمٌ لا يُطاق، وليس عذابًا معيَّنًا معروفًا لدى السامع، بل عذابٌ شديدٌ، غيرُ محدّدِ الشّكل أو المكان، مجهولُ التفاصيل، واسعُ التأثير، عامّ وشامل.

سرُّ وصف العذاب بلفظ ﴿صَعَدًا﴾ منكرًا:

وصَف القرآنُ العذاب في قوله تعالى: ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ بلفظ المصدر ﴿صَعَدًا﴾؛ للمبالغة؛ لأنّه يتصعّد المعذّبَ، أي: يعلوه، ويغلبه، فلا يُطيقه[5]، ولكون ﴿صَعَدًا﴾ أوسعَ دلالةً، فهو يجمعُ مع المشقّةِ

عذابُ المعرضين شدّته متزايدةٌ ومشقّتُه مستمرةٌ

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 392.
(2) ابن عادل، اللباب: 19/ 429، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 240.
(3) الراغب، المفردات، ص: 554.
(4) الزبيدي، تاج العروس: (عذب).
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 370.

الشدّةَ والارتفاعَ والغلبةَ[1]، والمعنى: (نسلكه عذابًا شاقًّا شديدًا لا راحة فيه يعلوه، ويغلبه، ويصعد عليه، ويكون كل يوم أعلى ممّا قبله جزاء وفاقًا، فإن الإعراضَ كلَّما تمادى زمانه؛ كان أقوى مما كان)، وهذا مناسبٌ للوعيد الوارد في الآية لمن أعرضَ عن ذكر الله، وقد أفادَ تنكيره تهويلَ شأن هذه المشقَّة الشديدة المؤلمة التي لا راحةَ فيها، والتي وُصف العذاب بها.

توجيه المتشابه اللفظي بين هذه الآية وآية سورة طه:

الإعراضُ عن الذكر بين العذاب الأخروي والضيق الدنيوي

تشابهتْ هذه الآية: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾، مع قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه: 124]، فكلتاهما تتحدثان عن عاقبةِ الإعراض عن ذكر الله، وهي الضيقُ والشدّة والمعاناة، سواء في الدنيا أو الآخرة، معتمدة على الأسلوب الشرطي، إلا أنّهما اختلفتا في نوع العقوبة، ففي سورة الجن - التي تتناول موقف الجنّ من القرآن والإيمان والتكذيب - تمّ التركيز على العاقبة الأخروية، فكان التهديدُ بالعذاب الصعد شديدًا ومناسبًا لتصويرِ ما ينتظر المكذّب المعرض يوم القيامة، أمّا في سورة طه؛ فتدورُ الآية في سياق الحديث عن الوحي لآدم، وبيان أثر مخالفة الهدي الرباني في الحياة الدنيا، فجاء التركيزُ على المعاناة والضيق في المعيشة، التي تنبعُ من الانعزالِ عن منهج الله، فكان وصفُ المعيشة بالضنك، وأنّه لا بركة فيها ولا طمأنينة؛ لأنّ من أعرضَ عن ذكر الله كان كالأعمى عن الطريق، فالاختلاف في نوعِ العقوبة والتعبير عنها يعود إلى التناسب مع سياقِ كلّ سورة وموضوعها العام، فالعذابُ الصعد يناسبُ العقوبة الأخروية المكثفة، والضيقُ في المعيشة يعبّر عن العقاب الدنيوي لترك الهدي الإلهي.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صعد)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 240.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّقيا والشُّرب:

السقيا تكونُ من الآخر، أي: لا يكون الفاعل ذاتيًّا، فأصلُ السقيا: إشْرابُ الشَّيءِ الماءَ وما أشْبَهَهُ، تَقولُ: سَقَيْتُهُ بيَدي أسْقيهِ سَقْيًا[1]، أمّا الشربُ؛ فيكون ذاتيًّا، أي: فعل الشرب قد تمّ من الشخص ذاته، تَقولُ: شَرِبْتُ الماءَ أشْرَبُهُ شَرْبًا، وإذا قامَ به غيره؛ أضيفتْ له همزة التعدية، كقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ﴾ [البقرة: 93]، ويُقالُ: شَرِبْتُ الماءَ، وأُشْرِبْتُه أنا؛ إذا سُقيتُه[2]، ومن هنا كان استعمالُ لفظ السقيا أنسبَ؛ إذ الفاعلُ للسقيا هو اللّهُ تعالى، وهذا فيه امتنانٌ منه سبحانه؛ إذ يجازي من استقامَ على الطريقة بالسقيا والعطاءِ والإنعام.

السقيا تكون من الآخر، والشربُ يكون ذاتيًّا

الفتنة والاختبار:

الفتنةُ أشدُّ الاختبار وأبلغه، فأصلُ الفتنةِ من عَرضِ الشيء على النار لتظهرَ جودته من رداءته، واستُعملتْ؛ لتمحيصِ حقيقة ما في القلوب، وتكون في الخير والشرّ، وقد ورد لفظُ الفتنة في الاستعمال القرآني على عدّة وجوه فضلًا عن معنى الابتلاء والاختبار، منها: (العذاب، والشرك، والكفر، التعذيب والتحريق، والحيرة والضلال...)، فدلالات الفتنة أوسعُ من دلالات الاختبار، وفي قوله تعالى هنا: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ جعل النعمة فتنة؛ لأنّه قصدَ بها المبالغة في اختبار المنعَم عليه بها كالذهب إذا أريدَ المبالغة في تعرّف حاله أُدخِلَ النار، واللّهُ تعالى لا يختبرُ العبدَ لتغيير حاله في الخير والشر، وإنّما المراد بذلك شدّةُ التكليف[3].

الفتنةُ أشدُّ الاختبار وأبلغه في الخير والشرّ

الإعراض والتولي:

الإعراضُ: تجاهلٌ وعدمُ اكتراث، أعْرَضَ عَن فُلانٍ، وأعْرَضَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سقى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (شرب).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 396 - 397، والراغب، المفردات: (فتن).

بِوَجْهِهِ: كأنّه انحرفَ عنه، وولّاهُ عُرْضه، أي: جانبه، أو عارِضَه، ووَلّاهُ عَرْضَهُ: أدارَ ظهرَه له غيرَ مكترثٍ أو مهتمٍّ به، وصدَّ عنه، وتجاهله، وجفاه[1]، في حين أنَّ حقيقةَ التَّوَلّي: الإدبارُ والذهابُ والانصراف[2]، والتّولّي إذا عُدّي بعن لفظًا أو تقديرًا اقتضى معنى الإعراض وتركِ القرب[3]، وقد ناسبَ هنا استعمال لفظ الإعراض مع السياق الذي يتحدّث عن عاقبةِ من ينحرفُ، ويتجاهلُ، ويديرُ ظهره لذكر ربّه غير مكترثٍ ولا مهتمّ به.

التولّي إدبارٌ وانصرافٌ كاملٌ، والإعراضُ تجاهلٌ وعدمُ اكتراث

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي، وأحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عرض).

(2) الزبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (ولى).

(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ولي)، والكفوي، الكليات، ص: 28.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والستون،
سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 64 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-38-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 64 : المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-38-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6817852 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"